مُقَدِّمَة

هذا هو التاريخ: نحن بلا رتوش!

وتاريخنا القريب هو أصعب تحدٍ بالنسبة لأي مهتم بالرصد والتحليل، فالأحداث تتلاحق ونحن نلهث وراءها، والأزمات تقع ونحن نحاول احتواءها، والأشخاص يظهرون على الساحة ثم يختفون ونحن نسعى إلى فهم أسباب الظهور ودواعي الاختفاء. وفي هذا كله، تتشكل طينة التاريخ، وتصبح مهمتنا الأصعب هي استيعاب الأحداث وأحوال العباد والبلاد، بعيدًا عن صخب البعض وزعيق البعض الآخر، ممن يقودون حملات تعيد تغليف المبررات العطنة التي تهز الثقة وتربك حسابات المصريين في حاضرهم ومستقبلهم.

والكتاب الذي بين أيدينا، يجتهد في تأمل الظواهر المختلفة من قاع المجتمع إلى قمته، فلا يغفل حكايات الوزراء واختيارهم، ولا يهمل رصد وتحليل جرائم شريحة انحرفت من المدرسين والأطباء، وهم في النهاية حالات فردية لا تمثل الكثرة الغالبة ممن يؤدون رسالتهم السامية بتفانٍ وإتقان.. أو هكذا نأمل.

ولأنه ليس هناك ما هو أبلغ دلالة من حكاية تُروى بشكل جيد، فقد آثرنا ألا يكون الكلام مُرسَلاً، وعززنا ما نقول بقبسٍ من حكاياتٍ موثقة ومواقف منشورة في الصحف والدوريات والكتب والمراجع، حتى نعرف أصل ما جرى وحقيقة ما يجري.

وفي بلد تبدو إرهاصات التغيير فيه موجودة، لكن اللحظة غير معلومة، فإن التحليل المتأني والاستقراء المتعمق لعدد من القضايا والظواهر المختلفة، مع العودة إلى التاريخ القريب، يمكن أن يلقي مزيدًا من الضوء على ما استغلق علينا وحار كثيرون في فهمه بشأن حاضر مصر ومستقبلها.

نعم، المستقبل، الذي يبدأ الآن وليس غدًا.

وبقدر ثراء مصر شعبًا ووطنًا، بقدر ما تبدو حكايات هذا البلد درسًا في

التناقضات التي يعجب لها الآخرون. فمن انكسار غير مبرر واستسلام غامض، إلى انتصار مدوٍ وتفوق على الذات، ومن يأس ضارب في الأعماق، إلى تفاؤل مدهش وإرادة يعجب لها البشر.

هكذا يصنع المصريون "نظامهم" الخاص الذي يصعب التنبؤ به، كأن هذا الشعب الفريد في تاريخه والوطن الاستثنائي في جغرافيته، حالة لها خصائصها وسماتها وعلاماتها الفارقة.

ونحن نؤمن بمقولة العالم المصري الكبير د. جمال حمدان التي ترى أن "ما كان أبوه التاريخ وأمه الجغرافيا، فهو من صنع الطبيعة وصلبها"، مثلما نثق برأيه القائل "إن مصر اليوم إما القوة أو الانقراض، إما القوة وإما الموت، إن لم تحقق مصر محاولة قوة عظمى تسود بها المنطقة، فسوف يتداعى عليها الجميع يومًا ما كأكلة "قصعة".. أعداءً وأشقاءً وأصدقاءً".

ولذا، فإن طريق القوة يبدأ بالمعرفة، وتحديدًا معرفة التاريخ واستيعاب الجغرافيا، وهو ينهض بالعلم والإدارة والحرية المسؤولة، ويتعزز بالديمقراطية والنزاهة ومكافحة الفساد.

والثابت أن الفساد لا يجعل لجهود التنمية أثرًا ملموسًا، ويخلق بيئة غير آمنة للمواطن، ويهدر كرامته، ويضعف من ولائه للوطن، خصوصًا ذلك النوع الذي يحتمي بالسلطة والنفوذ، لينتقل من صورته المستترة إلى أخرى علنية. وربما جاز لنا أن نحذر من شيوع الإهمال والفساد الإداري وانتشار الرشوة، الأمر الذي أدى في عام ٢٠٠٩ وحده إلى إفراز الجهاز الحكومي نحو ٧٠ ألف قضية انحراف ومخالفات مالية، وكذا جرائم جنائية تصل إلى ١٠ آلاف قضية منها ١٣٠٠ قضية اختلاس للمال العام، و٥ آلاف قضية إهمال جسيم، وأخيرًا ٣ آلاف قضية رشوة.

إنها الأرقام المؤلمة والحقائق الصادمة.

وحين نتكلم عن أوجه الإخفاق والتقصير في إدارة الأزمات والكوارث، فإنما نحاول استقاء الدروس والعبر، حتى لا تتكرر الوقائع المؤلمة ويسقط المزيد من الضحايا، ونفرق كوطن في دوامة الأحزان. ولأن الإعلام في مصر أصبح طرفًا في قضايا ساخنة، فقد ارتأينا أن نأخذ بطرفٍ من تلك القضايا لنقدم نموذجًا مثيرًا للاشتباك الذي حدث ذات يوم غير بعيد بين صحيفة وقعت في

المحظور، ومجتمع استدرج في لحظة احتقان وفورة غضب إلى خنادق الطائفية.

ومع علمنا بأن هناك من يفضل الاسترخاء على مواجهة المشكلات، ومن يروج للسخرية على حساب البحث الجاد، ندعوى أن الناس أصبحوا بحاجة ملحة لأن يفرحوا، خصوصًا بعدما تكاثرت همومهم وعزّت ابتساماتهم، فإننا نرى أن العقل الممتلئ بالأفكار أفضل من الفم الفارغ إلا من النكات. ولهذا، كان ضروريًا أن نعرف، على الأقل حتى نعرف متى نضحك.. ومتى نبكي!

ولأننا نرى أن أول العلاج هو المواجهة مع النفس والوقائع، فقد عمدنا إلى التوثيق حتى لا نقع في فخ السرد العام الذي لا يقدم ولا يؤخر. إن كل حرف في هذا الكتاب يسعى إلى استنهاض الأمة، وينبه إلى العطب الذي أصاب كيان الجماعة المصرية، ويعمل على رسم معالم طريق الإصلاح، ويقرع أجراس الوعي والمعرفة بما يهدد كيان الجماعة المصرية من مخاطر؛ لأنه لا سبيل لنا للخلاص إلا بحسن الفهم ودقة التخطيط وإخلاص العمل من أجل بناء الدولة المدنية الحديثة.. والاستعداد لدفع استحقاقاتها.

لتكن قراءة الكتاب إذًا هي نقطة بداية على طريق الوعي بالحاضر وصناعة المستقبل.

أتمنى لكم قراءة ممتعة.

ياسر ثابت

دبي

١٣ أبريل ٢٠١٠